

د. حسنية عزاز

جامعة الجبلاي اليابس سيدي بلعباس الجزائر

## اللغة العربية بين العولمة والهوية

### "استحضار لماضٍ مفقود وأمل في مستقبل منشود"

الاستثمار في اللغة العربية، كيف نستثمر هذه اللغة؟ هذا السؤال جعلني أفكر في تاريخ اللغة العربية؟ كيف كانت هذه اللغة لغة عالمية مثل ما هو الحال اليوم بالنسبة للغة الإنجليزية، لذلك وسمت مداخلتني باللغة العربية بين العولمة والهوية، فكان سيق الحديث عن العولمة قبل الهوية؛ لأنه لا بدّ أن نبدأ بواقعا اللغوي المعيش، بعد ذلك نربطه بالماضي، وبالهوية، ولأجل ذلك لا بدّ أن نستحضر ماضيها الذي كانت فيه لغتنا لغة العلم والاقتصاد والسياسة والثقافة وخاصة (زمن عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل)، وأملنا كلّ في مستقبل لا نستحضر فيه فقط ماضيها وأمجادها في اللغة، وإنما نبني من الآن أسسا متينة بل وأتادا تقاوم كلّ وارد غريب يريد السيطرة عليها لا التعايش معها.

لقد عرف الغرب كيف يستثمر لغته، ويفرضها على الآخرين، وذلك بالعلم الذي توصلوا إليه، فدفع الكلّ إلى تعلّم هذه اللغة، فالإنجليزية إذن تعمل على الإلغاء والسيطرة والبقاء، وشعارها العالمي: لغة واحدة، نظام واحد، سياسة لغوية واحدة، وهذا هو أحد أهداف النظام العالمي، فما هي العولمة إذن؟

لقد نالت العولمة ما نالته من التعاريف العديدة في كل المجالات، فهي عولمة أمركة (كما يسميها البعض)؛ لأن أمريكا هي من تفرض هذا النظام، وتاليا لغتها، والعولمة على وزن "فوعله" مأخوذة من (عولم) بوزن (فوعل)، وهو من الأوزان الحرفية الدالة على القسر والإجبار<sup>1</sup>، والعولمة تعريب لكلمة "Globalization"، وهي حمل العالم على الأخذ بالمناهج الغربية، أو صب العالم في قالب الحضارة الغربية المهيمنة... اقتصادا وسياسة وثقافة وقيما، وطمس الهويات، فهي غزو ثقافي اجتماعي اقتصادي سياسي يستهدف الدين والقيم والفضائل والهوية كل ذلك باسم العولمة وحقوق الإنسان.<sup>2</sup>

وهناك من يرى أن العولمة هي وصف لظواهر متعددة كالنقد المذهل في وسائل الاتصال والانفتاح المعلوماتي، وذهاب الحواجز بين الدول مع سلطة القطب الواحد الذي يسعى للهيمنة الاقتصادية.<sup>3</sup>

والعولمة اللغوية هي أخطر أنواع العولمة؛ لأنها تعني عولمة ثقافة اللغة الإنجليزية وسيادتها على ثقافات العالم كلها -مثل ما ذكرت سابقا- وإضافة إلى هذه اللغة هناك لغات أخرى تعرف انتشارا واسعا كاللغة الإسبانية التي تنال مواقع متقدمة في الشبكة وفي البعد الجغرافي، وإذا كان حديث الساعة هو الإرهاب، فهذا أيضا نوع من الإرهاب، إنه الإرهاب اللغوي الذي تحمله اللغات المتقدمة، في حين أن اللغات الأمّ محرومة من أخذ مواقعها الحقيقية كما هو الحال بالنسبة للغة العربية التي تعيش حجرا بل إقصاء، هذه الحال التي وصلت إليها لغتنا تجعلنا نفكر في مواطن النقص وأسباب الضعف والتخلف، تجعلنا نعيد النظر في قضايانا اللغوية، وفي تقديم الأفكار والإسراع بحلول تحرك الفعل العلمي للتغيير نحو الأفضل في لغة كانت ذات أصل وفرع، لغة ذات باع تراثي كبير، لغة ذات ماضٍ مجيد، لغة عرفت كيف تنتقل العلوم من لغات أخرى إليها، ومنها إلى لغات أخرى.

ماذا أصاب هذه اللغة الآن؟ إنها مصابة بالمرض، وقد شخصنا نحن أطباء اللغة (اللغويون) مرضها، إنه مرض عدم مسابرة مستجدات الواقع الجديد، إنه مرض التخلف والتباطؤ، وعدم اللحاق بالركب، هذا المرض سببه عدم الوقاية من طرف أهلها؛ لأنهم هم من تخلفوا، إذن العربية مظلومة من أهلها والتخلف لا يكمن في ذاتها، وإنما في أهلها الذين تكاسلوا، فقلّ إنتاجهم بل انعدم وكثُر استهلاكهم.

إنّ الأمة التي لا تُنتج العلم بلغتها تضعف لغتها وتتكلمش، إذن العربية اليوم تقف في مفترق الطريق، ومستقبلها مجهول بل مرهون بما يتوافر لها من قدرات ذاتية على مواجهة التحديات العلمية، لا بدّ من منتج علمي يوصلها إلى برّ الأمان، وإلاّ سوف تبقى تراوح مكانها بين الموت والحياة؛ فلا هي من اللغات الحيّة فنمدح لمنتوجها، ولا هي من اللغات الميتة فيرثي لحالها.<sup>4</sup>

هذه العولمة اللغوية التي تسعى إلى طمس الهوية، فماذا تعني الهوية؟ إنها جوهر الشيء وحقيقته، يقول عنها الجرجاني: "إنّها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق<sup>5</sup>، وهوية أي أمة هي صفاتها التي تميّزها من باقي الأمم لتعبر عن شخصيتها الحضارية<sup>6</sup>، والهوية اجتماع ثلاثة عناصر العقيدة التي توفر رؤية للوجود، واللسان الذي يجري التعبير به، والتراث الثقافي الطويل المدى<sup>7</sup>، وقد أدرك أعداء الإسلام أنّ استعادة المسلمين لهويتهم الإسلامية وانتمائهم القرآني هو أكبر الأخطار، لذلك يؤدون مواجهة هذا الخطر في نظرهم بالسلاح نفسه، باستخدام السلاح الأوّل (اللسان).<sup>8</sup>

أقول: إنّ العولمة ليست كلّها شرّاً يُتقى، ولا خطراً يُدفع، ولا سلبيات تُمحي، وإنّما للعولمة محاسن أيضا يجب أن يُنتفع منها، ولا ننسى المحاذير الكثيرة التي يجب أن يُحترز منها، وخاصة العولمة اللغوية التي أصبحت حالة حتمية لا يمكننا الخروج عن دائرتها، ولا نملك حيالها إلاّ الميل مع إيقاعاتها بمراعاة خصوصياتنا، لا بدّ أن نتواجد، وأن نضع خططا واستراتيجيات تسمح لبلداننا وثقافتنا بالتواجد مع

هذه القرية الكونية، فنحن في زمان إثبات الوجود على الوجود، والتفكير في مستقبل محمود ؟؟؟؟؟ كل ما هو مسدود، لابدّ علينا أن نندمج، أن نخوض هذا العراك المحتوم لتخطي الهموم.

مع هذه العولمة، علينا تخطي همومنا اللغوية أولاً؛ لأن العولمة لا تختص بالجانب الاقتصادي فقط، وما تعرفه الأسواق من تبادل المصالح والتنافس وسوق البورصة، إنّ العولمة الحقيقية هي العولمة الثقافية، وهي أخطر مظاهر العولمة على أساس أنّ الفكر هو المؤثر الأوّل في سلوك الإنسان بما يحمله من أمركة للثقافات باستراتيجيات بعيدة المدى، وبترويج منافع الحضارة المعاصرة في ثقافة الأقوى مادياً ولغويًا، للقضاء على التراث الثقافي والمكوّن الحضاري للشعوب الأضعف، والقضاء على ما تملكه الشعوب الضعيفة من تراث لغوي.

يُعدّ العامل اللغوي من أهم العوامل الحاملة لهوية الأمة الثقافية والفكرية، وهو الوسيلة التي تحرّك المشروع الثقافي والحضاري المعاصر للبروز، والعولمة بشقيها الثقافي واللغوي هي التي تواجه التحدي من ثقافات الأمم والشعوب الواقعة تحت ظلّ العولمة الثقافية،

### فأين محالنا إذا بقينا على ما نحن عليه؟

أمام خطورة هذا الأمر، علينا أن نعتبر، ومن أين لنا أن نأخذ هذه العبر؟ لنأخذها من شعوب ارتقت بلغتها، وأنتجت بها، وتعلّمت بها وعلمت، وتداولت بها، واستعملتها، وأبدعت، والشواهد كثيرة، فمن كوريا إلى الصين إلى إسرائيل شعوباً، بعضها اضطهدتها الاستعمار لقرون، ويتعلق الأمر بكوريا والصين، حيث كانت اللغة اليابانية هي اللغة السائدة، لكن وبالمرسوم الأوّل الذي أصدرته عشية استقلالها هو عدم التداول اللغوي بلغة المحتلّ، وذلك الذي جعلها ترتقي سلّم الترقّي الدولي في إنتاجها، ومضايقة الدول الغربية بما تديره من تقنيات، فلم يحصل لها مرادها إلاّ بعد أن تخلّت نهائياً عن اللغة اليابانية، وكذلك الصين التي أصدرت أول مرسوم بتوحيد الصين لغويًا، وكان لهذا القرار الأثر البارز في التناسق المجتمعي الصيني، وبهذه اللغة الموحدة التقت النخبة الصينية، وبلغت الهان أصبحت الصين الآن قطبا كبيرا، أغرقت السوق العالمية بمنتجاتها، ولم يكن ذلك إلاّ باللغة الصينية الجامعة، وكذلك فعلت إسرائيل مع اللغة العبرية، وذلك القرار الذي اتّخذته، حيث نصّت في دستورها على بند يختصّ باللغة العبرية، على أنّها لغة التخاطب دون غيرها، وعلى السياسي أن يقسم على التلمود بأن يعمل على تنفيذ هذا البند<sup>9</sup>، فعلى الجميع تجسيده وتطبيقه حرفيا، ومنه فإنّ العامل الأقوى في العولمة هو عامل اللغة.

لنأخذ العبرة -نحن العرب- ونحرص في المقام الأوّل على اللغة الجامعة (الفصحى)، ونوحّد لهجاتنا ليتمّ التوحّد اللغوي والانسجام الاجتماعي، فلا يمكن أن تكون لهجة بلد ما هي اللغة الجامعة لهذه الأمة (كأن نأخذ اللهجة اللبنانية أو المصرية أو السعودية أو الجزائرية...)، وبهذه اللغة نسير إلى مستقبل

أفضل، ومن ذلك يكون دخولنا العولمة من باب أننا لا ندوب في الغير، ولا نتخلى عن الخصوصيات، فلا يجب أن نكون منعزلين وبعيدين عن المشاركة في صنع الحضارة، ولا بدّ من التعايش مع اللغات الأجنبية والاستفادة منها.

كيف نستثمر لغتنا في مجالات الحياة؟ إنّ العولمة اللغوية تعمل على دحر اللغات المتخلفة، ولا تعدّ إلاّ باللغة الأقوى واللغات المنتجة للعلم؛ باعتبار اللغة تحيا حين تُنتج العلم وتزدهر به، وبازدهار العلم تزدهر الأمة، وبذلك تنشط العلوم والآداب والفنون، فالتحدّيات اللغوية كبيرة وكثيرة.

لا ننكر أنّ العربية في وقتنا الحالي أصابها الوهن في ظلّ التكنولوجيا، فهي تعيش قُصوراً في العدّة المعرفية وأمية متفشية بالرغم من وجود جمعيات محو الأمية، ونقص في التخطيط، وفشل في التعريب ومستقبل مغلق، ونخبة تابعة، وعقول مهجّرة ولغة المدرسة لغة هجينة.

جراح العربية عميقة، وأوجاعها مريرة، فلينظر المرء العربي في لغة الشابكة، والحواسيب المعقّدة، والهواتف النّقالة المتطوّرة، وما فيها من تقنيات بحثية، ولينظر إلى الوسائل الرقمية المعاصرة، ويبحث عن العربية فيها، فلا يجد لها مكاناً وإن كان لها وجود فهو محتشم.

وإذا بحثنا في جامعاتنا فقد غزتها العولمة حتى أصبحت برامجنا تعيش الاجترار والاستيراد، وتطبيق النظريات الغربية بكلّ ما تعيشه من خصوصيات في لغاتها الأصل، ودون تكييف، كما تعاني مؤسساتنا البحثية قسوراً في التعبير عن الابتكارات العلمية، فأين اللغة العربية في كلّ هذا؟<sup>10</sup>

اللغة العربية هي اللغة نفسها، حروفها الهجائية التسعة والعشرون، مفرداتها، ألفاظها، فهي غنية ثرية، تتمتع بالاشتقاق، والتوليد اللغوي، والترادف، وقواعدها معروفة، فلغتنا ليست ضعيفة، وإنّما الضعف يكمن في أهلها؛ لأنّ الأصل في اللغة أن تتطوّر وتنمو؛ وفي نموّها نمو للفكر، وبروز للإبداع، واللغة تتطوّر وتنمو وتتقدّم وتتأخّر بحسب درجة الناطقين بها، ومدى رقيهم الحضاري وتقدّمهم الاجتماعي، واللغة مرآة للمجتمع.

لابدّ من وضع الثّقة في اللغة، أجل الثّقة، وبها تأسّس المشاريع، وبنيت المراكز البحثية والمختبرات العلمية، لنخرج من التخلف بفعل المشاريع ذات العلاقة بالتنمية البشرية، فقد استثمرت في بناء الفرد؛ ذلك الفرد الذي عمل على التغيير بلغته وفي لغته.

**خاتمة:**

إذن الحديث عن اللغة وعن استحضار ماضيها، والنظر إلى مستقبلها مرتبط بالحديث عن أهلها، وموقفهم من لغتهم بوصفها معقلا لهويتهم ووعاء لثقافتهم ومكونا حضاريا لتاريخهم، فاللغة تستمد مقوماتها من حال الأمة ومتغيرات الحياة وموقف الناطقين بها.

واللغة تستمد القدرة من قدرة أهلها، والعربية في واقعنا اليوم بحاجة إلى تفعيل وتحريك وفق استراتيجيات معاصرة، فهي تطلب منا التحرك للنظر في قضايا خمس مستعجلة، وهي:

❖ **المحافظة على اللغة العربية:** ماهي السبل للمحافظة على اللغة العربية؟ لنحافظ على لغتنا، لا بد أن نزرع القدوة في أبنائنا، كيف ذلك؟ أن يكون الكبير قدوة للصغير في التحدث باللغة العربية وتمجيدها، ولا تقف المحافظة عند القدوة، بل تتعدى إلى التمثيل فيها وبها من حيث الاستعمال والعمل من أجلها، وتكون المحافظة بإجلالها وذود الدخيل عنها، لا بد أن نحافظ على صفائها، ( وأنا أتحدث بجملة عربية، أحاول أن لا أستعمل الكلمات الأجنبية ما دمت أستيع استعمال الكلمات المحلية من لغتي)، وعليه لا يمكن أن تقوم دولة عربية بدون لغة عربية، فلا يمكن أن تقوم التنمية البشرية في مجتمعات متقدمة بلغات أجنبية، ولا يمكن أن تحصل التنمية الاقتصادية باللغة الأجنبية.

فعلى شعوبنا أن تنشُد التنمية البشرية التي لا تكون إلا بتحقيق الآتي:

- الديمقراطية الفعلية تنظيرا وتطبيقا؛
- التعليم الإلزامي المجاني الحكومي؛
- عدم فتح المدارس الخاصة أو الثانويات أو الجامعات.

فمن الضروري اليوم التأكيد على مسألة التربية والتعليم فهي أسّ الخروج من التخلف الذي نعيشه الآن في أوطاننا العربية، فلا استثمار إلا في التعليم، فلو أنّ الدول العربية استثمرت في تحسين أداء التعليم باللغة الوطنية، فلا يأتي جيل إلا ويكونون على رأس البحث العلمي في كلّ بلاد العالم، وتتقدّم كلّ الدول العربية، شرط التخلي عن الهيمنة التي تعود للغات الأجنبية.

❖ **محاربة الغربة اللغوية:** ماذا نقصد بها؟ من أشدّ أنواع الغربة، الغربة اللغوية، إنها غربة اللسان أصعب من غربة الأوطان، حيث أصبح الناطق بالعربية في وطنه غريبا وخاصة علماء العربية، وأمسى الجهل بها متناميا، والعربية مهجورة عن العلوم فلا تدرّس بها، ولا يعتد بمصطلحاتها، ( فإذا التقينا بأستاذ في العلوم أو طبيب جزائري فلا يشخص لك الدواء إلا باللغة الفرنسية ولا يصف لك الدواء إلا بهذه اللغة الأجنبية)، فإلى متى تبقى هذه اللغة تعاني الإهمال، ومتى تتغير هذه الأحوال، وهل الغربة باقية بتسوية الأجال؟؟؟

❖ **تفعيل العربية في التربية والتعليم:** إعادة النظر ثم إعادة وإعادة لتكون الإفادة، إعادة نظر في المناهج والطرائق والتركيز على المهارات اللغوية (محادثة واستماعا وقراءة فحوارا ثم تفاعلا وابداعا)، لا بد من وضع نظام تعليمي محكم دقيق، يبدأ بالتجريب وبعده يكون التعميم لتنمية القدرة على التفكير العلمي والبحث والتفسير والنقد والتحليل وأخيرا التقويم المتميز بالصدق والموضوعية والشفافية لتكون الثمار وبعدها يأتي الاستثمار.....

❖ **اللغة العربية لغة علمية:** لغتنا لغة علم وعلوم، وتراثنا العلمي القديم يشهد على ذلك، هذه اللغة التي أقامت لنا صرحا حضاريا وعلميا وتاريخيا هي نفسها لغة اليوم وهي عمادنا في الوقت المعاصر، ولكننا نروم منها التقدم في مجالات حيوية اقتصادية، فالتنمية البشرية لن تقوم في أمة من الأمم دون

اعتمادها على لغتها الوطنية، لغة لها التفعيل في الاقتصاد والمال ومختلف العلوم، نريد من العربية الآن خطابا علميا لا أدبيا، فتدخل مجال المصطلحات العلمية والتقانة والمعلوماتية والترجمة الآلية ...، لا بد من معرفة مواطن الخلل وتغييرها دون ملل أو كلل لتعود لغتنا لغة العلم من جديد.

❖ **اقتحام عالم الحوسبة:** العربية الآن في حاجة إلى الانتقال من الوصف إلى التوصيف ، واقتحام عالم الحوسبة وذلك بتضافر الجهود وتعاون المجاهدين في سبيل الحفاظ على اللغة لا بد أن يعمل اللغويون والحاسبويون على إنشاء مشاريع تنموية لغوية لإنتاج برامج الأنظمة اللغوية للعربية التطبيقية على مستوى الصوت والنحو والدلالة والمعجم والترجمة الآلية ولغتنا العربية قادرة على التعايش مع المستجدات العلمية والتقنية المعاصرة لما تملكه من قابلية.

نريد من هذه اللغة أن تكون عاملة فاعلة في المجال العلمي الذي يحمل طابع الإحصاء والترقيم والتشفير والحوسبة والمعالجة الآلية والترجمة الآلية... فنكون بذلك استحضرننا الماضي المحمود وأعدنا لها الواقع المحمود لمستقبل منشود ونكون قد حققنا الأمن اللغوي والأمان للغة لطالما عرفت الهجران والنسيان من قبل الأبناء قبل الأعداء.

## الهوامش:

- <sup>1</sup> أحمد السحمراني، تسويق الاستهلال وترويج الكاوبوي والهامبرجر، سلسلة كتاب المعرفة (7) نحن والعولمة من يربي الآخر، ط1، 1420هـ-1999م، ص129.
- <sup>2</sup> محمد عمارة، مستقبلنا بين العالمية والعولمة الغربية، سلسلة في التنوير الإسلامي (53)، ط1، 2001م، دار النهضة، مصر، ص12-14.
- <sup>3</sup> خالد بن عبد الله بن عبد العزيز القاسم، العولمة وأثرها على الهوية (مقال منشور على الموقع الإلكتروني: [www.alukah.net](http://www.alukah.net)، 2007/02/16م.
- <sup>4</sup> صالح بلعيد، هموم لغوية، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو، الجزائر، د.ط، د.تا.
- <sup>5</sup> الشريف الجرجاني، التعريفات، دار عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407هـ/1987م، ص314.
- <sup>6</sup> ندوة الهوية العربية عبر حقب التاريخ، 25-26/06/1997م، المجمع العلمي، بغداد، الكلمة الافتتاحية للندوة، ص07.
- <sup>7</sup> محمود سمير المنير، العولمة عالم بلا هوية، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1421هـ/2000م، ص146.
- <sup>8</sup> بن سعيد محمد، اللغة العربية بين الحفاظ على الهوية ومواكبة عصر العولمة، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 19، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، د.تا.
- <sup>9</sup> صالح بلعيد، هموم لغوية، ص34.
- <sup>10</sup> صالح بلعيد، هموم لغوية، ص36.